الحفلة

• منار إدريس*

«نحتاجك غدًا الساعة الثانية عشرة ظهرًا. حمْل محْرز. فيه رزقة جيدة. اتّفقنا؟ الساعة الثانية عشرة في الساحة. سلام.» ربّت على كتفه وانصرف.

«هيه. شغلة محرزة. يعني كم؟! مئة ليرة؟ مئتان؟ يعني ثمن الخبز والبصل؟ تفه! ولكن الحمد للّه على كل حال. يعني يا علي، ما الذي تَقْدر عليه ولم تفعله؟ أنت في آخر المطاف عتّال، شيّال، كل رأسمالك هو ظهرك... وكيس خيش.»

اقترب من واجهة محلّ للملبوسات، ابتسم عندما رأى السعر. مضى في الشارع المضاء بالمصابيح وأضواء المحلات. نظر إلى الناس. رجال ونساء، شباب وبنات، كلٌّ منهم لديه ما يشغله: عائلة، حبيب، أو مجرّد أمل. رأى رجلاً في متوسط العمر، له كرش خفيفة وصلعة خفيفة: ربَّما كان موظّفًا، وربَّما كان راتبه خفيفًا أيضًا. لا بدّ أن يشتري لابنته بنطالاً ما: عيب لقد أصبحتْ في الجامعة.

طفل يمسك بقوّة بيد أمّه حتى لا يأخذه الغريب ويمضي. حبيبة تمرّ بسرعة متجهّمة: هكذا الأصول. تسمع كلمةَ غزلٍ من هنا، وكلمة من هناك، وتمضي.

كانت الحركة في السوق نشطة. المحلات ملأى بالناس. الهواء عليل. الطقس دافئ. الناس تمشي وتبتسم.

أخيرًا وصل إلى بيته... أو بالأحرى إلى غرفته؛ فالبيت أحيانًا يكون أكبر من ساكنيه.

«يومًا ما ستُفْرج.» نظر إلى صورتها. ابتسم. جميلة. بريئة. عيناها خضراوان واسعتان. فمها صغير ومبتسم. شعرها الأشقر متهدّل على كتفيها كأميرة نائمة. من عينيها ترى روحها، حنونةً كمطر نيسان يحيي قلبه. رائحة الورد تدخل أنفه. خلع ثيابه. استلقى على سريره. كان حقًّا يشعر بالفرح.

في صباح اليوم التالي، وقف أمام المرآة. لاحظ ذقنه النابتة. ارتدى قبعة الصوف الزرقاء وخرج.

الزمن لايزال يتحرّك. أناس يتحرّكون، وآخرون يتوقّفون، والباقي يموت. طلاّب يذهبون إلى مدارسهم. موظّفون يرتدون بذلات رثة. سيّارات فخمة تسير حولهم وتمضي، وحياتهم تسير وراءهم وتمضي.

ـ حمْل بيانو. شغل جيّد، أجر كبير.

ـ لا بأس. إلى أين؟

ـ قاعة الاحتفالات في...

ـ كم رجل معنا؟

ـ ثلاثة، وأنا وأنت.

عندما رأى البيانو، توقّفت الدهشةُ أمامه. بيانو كبير أسود مزركش، له ثلاثُ أرجل، يَرْبض أمامه كملكٍ متوَّج. حملوه برفق. وضعوه بالشاحنة، وانطلقوا.

في القاعة استقبلهم رجلٌ له لحيةٌ صغيرة، وشعر أبيض طويل. يضع نظّارات صغيرة، ويتكلّم بما لم يفهمه. ولكنْ يبدو أنَّه إنسان طيّب. يرافقه رجل سمين، وجهُه مدوَّر، وفي يده عدّة خواتم ذهبيَّة لمّاعة. كان الرجل السمين يُصدر أوامره هنا وهناك: «احملوه ببطء. بهدوء. هذا بيانو، لا كيس بطاطا.»

---

* ـ كاتب شابّ من سوريا.

عندما وضعوا الملك على الأرض، اقترب الرجلُ ذو الشعر الأبيض منه، فداعب قطعه البيضاء والسوداء، وعاد للتحدّث مع الرجل السمين بكلام لم يفهمه. خلع طاقيَّتَه الصوفيَّة الزرقاء. أمسكها بيديه، عصرها، ودنا منهما.

ـ أستاذ، يعني يمكن إذا سمحت، هل ستقيمون حفلة عزف؟

نظر إليه الرجلُ السمين كأنَّه ينظر إلى حشرة:

ـ وما شأنك أنت؟!

ـ يعني أستاذ، ممكن لو تكرّمت أن تعطيني بطاقتين. وسأدفع ثمنهما. يعني أنا أحب الموسيقى وأريد... أريد أن أحضر الحفلة.

كان الرجل السمين ينظر إليه وكأنَّه لا يصدِّق ما يسمعه. كانت عيناه تقولان: «أنت تسمع الموسيقى يا حثالة؟!»

اقترب الرجل ذو الشعر الأبيض. تكلّم مع الرجل السمين. هزّ رأسه. ابتسم. مدّ يده إلى جيب معطفه. أخرج منه بطاقتيْن وأعطاه إياهما.

ـ يقول إنَّه سينتظرك.

نظر إلى الرجل ذي الشعر الأبيض. ابتسم له. شكره بانحناءة. لم يصدِّق عندما رأى البطاقتين بين يديه. قلّبهما. قرأهما. كاد أن يقبِّلهما. أسرع إلى أول هاتف وجده أمامه. «ألو، سلمى؟ هل ترافقيني إلى حفلة عزف؟ حسنًا. سأنتظرك في الساعة السادسة في الساحة.»

في الساعة السادسة كانت هناك: جميلةً كأنَّها الحياة، دافئةً كأنَّها شمس، خضراءَ كأنَّها بستان، شقراء كأنَّها ملاك، حبيبةً كأنَّها حبيبة.

ابتسم. كان لونُ السماء مختلفًا. سار وقد أمسكتْ بكوعه. شاهدا الناسَ كلَّهم سعداء. حتى الطفل الرثّ الثياب، المشعّث الشعر، الذي ألحَّ عليهم أن يشتريا منه علكةً كان سعيدًا.

سألتْه وهما يسيران: كيف العمل؟

ـ لا بأس. قريبًا سأشتري غرفة النوم، وربما كنبةً أيضًا.

احمرّ وجهها وداعب النسيمُ وجنتيْها. رأى بقلبه الفراشاتِ تطير في مساحات عينيها الخضراويْن.

ـ هل تُجْهد نفسَكَ في العمل؟

ـ يعني... حتى أتزوّج بسرعة.

ـ انتبهْ على نفسك.

أمام صالة العزف، وقف أناسٌ ينتظرون. كان الجوّ عبقًا بروائح مختلفة: عطور، رائحة أدوات زينة. لكنّ رائحة القلوب كانت غائبة.

كانت هناك سيداتٌ كثيرات. أجسادٌ كثيرة. ثرثرةٌ كثيرة. شبابٌ وشاباتٌ، الله يعلم من أين أتوا. ربّات بيوت واسعة، فيها غرف واسعة، ومطبخ واسع، وخادمٌ أو خادمةٌ. دخلوا إلى الصالة، جلسوا على مقاعدهم. كان البيانو في منتصف المنصّة، جليلاً مهيبًا.

قال لها: «أنا والشباب حملناه إلى هنا، أليس جميلاً؟»

وأخيرًا ظهر الرجل ذو الشعر الأبيض. غنّى للجمهور. صفّقا له بشدّة. «هو الذي أعطاني البطاقتيْن، رجل طيب. بروفيسور.»

جلس الرجل ذو الشعر الأبيض على كرسيّه وبدأ العزف. خرج النغم هادئًا ناعمًا، انسابت معه ذكريات قديمة. أحسّ أنّ النغم يدور حول نفسه كفراشة تدور حول زهرة، ثم أصبح أقوى وأسرع. أحسّ به عميقًا كالبحر في عينيْها. وما لبث النغم أن أوصله إلى الشاطئ، وعاد هادئًا كليلة صيف.

الألم القديم المدفون في قلبه أحسّ به يَبْعث فرحًا غامرًا يحيط به. أغمض عينيْه. رأى قلبه بستانًا فيه شمس صغيرة تبتسم لهما، وكوخٌ جميل صغير يعيشان فيه مع طفل صغير، ذي شعر أشقر وعينين خضراوين كأمّه، وساعدين فولاذيّين وظهرٍ كالصخر مثل أبيه. ورأى قرب الكوخ جدولاً صغيرًا، وحوله أشجار كثيرة: كرز، خوخ، تفاح، والطفل يلعب ويركض وصراخُه يملأ المكان.

أحسّ يدها في يده. أمسك بيدها وقرّبها إلى وجهه وقبّلها.

استمرّ العزف رقيقًا وعذبًا، إلى أن توقف العجوزُ ذو الشعر الأبيض، وانحنى للناس. حينها أدرك أنّ النغم توقّف. والحلم توقّف. ولكنّه صفق بحرارة شديدة. رأى العجوز ينظر إليه ويبتسم، وما لبث أن غادر المنصّة.

في الطريق الفارغ كانا يسيران، وكلٌّ منهما يحمل قطعة من البوظة. كانا يضحكان من طريقة أكلهما. أخرجتْ من محفظتها منديلاً مسحتْ به فمه. أحسّ بأناملها خلف المنديل تتحرّك على فمه.

ـ كانت أمسية جميلة، أليس كذلك؟!

ـ أجل، جميلة.

ـ هل ستذهبين إلى العمل غدًا؟

ـ نعم.

ـ لن أراكِ إلاّ يوم الخميس المقبل.. أتعرفين؟ سأشتاق إليك.

نظرتْ إليه. حدّقتْ في عينيْه لأول مرّة.

ـ وأنا سأشتاق إليك.

في اليوم التالي ارتدى بنطالَ العمل، وقميصَ العمل، وطاقيةَ العمل الصوفيّة الزرقاء. وعندما رآه أبو محمد في الساحة هتف بصوت عالٍ:

ـ نحتاجك اليوم. حمْل محرز. فيه رزقة جيّدة.

وربّت على كتفه، ومضيا.

دمشق